قصة روحي

بقلم : د. حسين كبه

عرفته قبل ثلاثة عشر عاما ، عن طريق احدى صديقاتي . وكنت آذ ذاك قد قطعت من سني حياتي عشرين عاما. وكانت تطرق اليه نظرة اعجاب وتقدير، فقد رأيت فيه انسانا مليئا بالحيوية والشباب ، له مثله الخاصة به ، وله قيمه الانسانية التي يتخلق بها، وله من تجاربه المؤلمة ما قد صقلته وشذبت طبعه ، فجعلته جديرا بالثقة والاحترام.

وقد كانت اول انطباعاتي عنه ، انه شاب حي ، قليل الكلام ، لا يندفع بعواطفه ، ولا يصرح بما يجالج نفسه، يبدو على تصرفاته البساطة وتزينها المجاملة واللطف والثقة بالنفس . وهو ، وان لم يكن اريحيا لامعا في معاشرته ، تحبه كثيرا من تقرب منه ، وتكلم معه ، وعرفه ، واحسن فهم طبيعته . ولم يطل بي الزمن حتى حرت مراسيم خطبتي منه .

فكان « معامر » يدعوني في ايام خطوبتي للخروج معه معا في نزهة قصيرة ، ويعرض علي احيانا مشاهدة فيلم سينمائي . وكنت اقبل منه دعوته، واقبل على ما يدعوني اليه . وقد كنا حين نخرج معا ، نشعر براحة نفسية ، تتزايد كلما اطلنا اجتماعنا ، وتحس بدوافع تبعث فينا الامل ، وتحفزنا على التقارب وتشوقنا الى استماع احاديث بعضنا لبعض الاخر، ومشاركة كل منا لشجون الاخر . فكان يطول بنا الحديث ساعات لا نعرف عددها ، ولم نشعر بملل قد اصابنا . بل كان الشوق يربطنا الى قيم الزمان لتمثل بهذا الحديث الذي نطيله فيه . وسرعان ما تمكنت الثقة بيننا ، وآمن كل منا بمقالة صاحبه ، وصدق خبراته ومغامراته ، وما جرته عليه ايام عناء واملاكه ، وصرت اشعر بفراغ كبير كلما افتقدته ، ولم تطمئن نفسي الا أن يكون معي . ولم البث ان شعرت بانه الانسان الوحيد الذي صمه قلبي واحتضنته عواطفي ، وكان قد اوحى الي ، آخر الأمر ، أن هذا التقارب بين روحينا ، ان هو الا الحب الذي استعرت نيرانه بين ثنايا عالمنا ، وشعرنا ان لن تستقيم لنا سعادتنا الا ان نعجل بأمر الزواج . والحقيقة التي كنت واثقة من « معامر » كل الثقة ؛ فهو الرجل الذي يمثل حقا دماثة الخلق

وكياسة الشخصية ، وقد جمعني واياه شعور متبادل ،وفكر مثالية متجانسة . ولم تكن لخواطرنا الطون قط ، ان قد تصاب بخيبة أمل فيما كنا قد عقدنا النية عليه ، او قد نقع فيما لم نكن نتوقعه .

وكنا نلتقي احيانا كثيرة ، وقد ننفرد بانفسنا بعيدين عن نظار المتطفلين . ومع ان الحب كان يعمر قلبينا ، فلم يكن ليخلو اجتماعنا من نزاع واختصام . ولا يبعد ان يكون الاغراء الجنسي المتبادل بيننا قد مكن هذا الخصام ووسع نطاقه .

والواقع ان التفكير بتعجيل امر الزواج وتقريب ميعاده ، قبل ان تنهي دراستنا ، كان مرتبا من الخيال ، ولذا كانت الصعوبات تتفاقم دوما ، حين نجلس نتحدث معا لنكون على بصيرة من امرنا ، وقد كنا نشتبك احيانا كثيرة في حديثنا فيتناكس احدنا الاخر فيه ، وكانت كل صغيرة وكبيرة تقودنا الى نزاع فخصام ،قد يبعد مداهما .

واهم ما كان مثارا للنزاع ، هو اختلاف نظرتنا الاخلاقية في الحياة . فكان « معامر » يرى ان الانسان عليه ان يوسع افقه في كل ما يتناول المشاكل الاخلاقية ولا يعتمد الا على نفسه ، ولا يثق بغيره ، فكانت نفسه تنفر من كل افك او كذب او بهتان ، وتشمئز من كل تصنع ورياء . وهو الى ذلك قلما تستميله الامور الهامة التي تتعلق بمصالح الناس . ويبدو انه كان قد اخذ بتربية الروح الانانية فيه ،فكان يرى أن من الصعب عليه ان يساير الآخرين او يتحمل تصرفاتهم او ينصت الى ارائهم .

في حين كنت على نقيض منه . اذ كان يروق لي مخالطة الناس ، ويعجبني الاستماع الى آرائهم ، ويهمني الصلات المتبادلة بيني وبينهم ،واهمها الصلات المعنوية والاخلاقية . وقد اثرت في هذه النظرة العامة للحياة تطبعني بطابع المثاليات ، وعزلتي عن واقع الحياة ، فاصلتني الطريق . فكنت بهذه النظرة المثالية امثل من يرى ان ليس في العالم انسان شرير بطبعه . وهي نظرة غرست في الصغف والقصور في مصاحبتي الناس ومعاشرتي لهم ، فكانت تشغلني الفكرة العملية . فلم اكن افهم ، بعد الزواج ، شيئا مما جد في حياتي ، بل لم اكن في الحقيقة مهيأة لحياة زوجية صحيحة .

كان كل منا يضجر من صاحبه ، ولا يستطيع احتماله . فانا لم اكن استطيع ان استسيغ انسانا يحيى ويشاركني حياتي ، وهو لا يعنى بأهم مايعترضني من مشاكل وآلام ، فيتركني نهب عواصف الظروف والمصادفات . ولذلك كان كل اختلاف بيننا يوقعنا باسخط اشكاله في دوامة من سوء الفهم . ولم يكن من السهل علينا السيطرة على انفسنا للوصول الى حل ترتضيه .

فكان ان تراءى لنا ، بعد ايام العرس مباشرة ،ان زواجنا كان غلطة لن تغتفر ويندفع « معامر » فيقول لي مرة ، الا ترين أن حياتنا ستستمر على هذه الوتيرة من تكد العيش ؟ ، اذ يرانا الناس في ظاهرنا نعيش معا تصورنا السعادة ونعم قلبنا احب وهو غير ما نحياه على حقيقتنا . ولا يحمل بنا ان يخادع احدنا الاخر ، ولا نريد ان يتقول الناس هنا كثيرا .

فكان الوضع يسير من سيء الى اسوا . وطبيعي اننا لم نكن قد اردنا ان تتردى علاقاتنا الزوجية ، ويتأزم امرها . ولعل من البديهي ايضا ان لم يكن باستطاعتي التسامح معه ، ولا اعتذار قارص كلامه ، وهو الذي لم يعد يصغي اليه او يستأثر بي مرة واحدة ، فيكرس لي لحظات اختص به نفسي ، لحظات نوقظ في الحياة ، وتشعرني بحرارتها . ولم استمع منه كلمة « احبك » وقد كانت قبل هذا ملأ فمه . انها لتحلو لي ، حتى ولو لم يكن يقصدها .

ومن الغريب ان يؤول الامر بي الى ان أتبلد ، وأتعامى الى هذا الحد ، ترى ايكون بالامكان انقاذ الموقف ، وتلافي ما قد يدر من غلطات الماضي ؟

والواقع اننا كنا في علاقاتنا المتبادلة غير آبهين بما نقول ونعمل ، يغلب على تصرفاتنا التهور والطيش ، وتدفعنا الثقة والاخلاص ، وتتحكم فينا الصراحة والسذاجة . وقد كنا في الحالات التي يتأزم فيها الوضع بيننا نختار الطريق المريح للتوصل الى احلال التفاهم والوئام ، وهو طريق المهادنة والصلح لاحلال السلام .

وحين كنت اتخذ من هذا الطريق مسلكا ، كنت اكتفي بان يقول لي ، انك محقة ، انني اشاركك الرأي فيما ذهبت اليه ، فيتراءى لي ان قد هدأت الزوبعة ،وعادت الامور الى مجاريها . ولعل من الحق ان يقال ، بان الزوبعة قد ترى ان قد هدأت حدتها ، وهو لاشك هدوء يجب ان يقف منه الانسان حذرا ، فلا يأخذه الغرور .

فمن السهل ان يساير المرء صاحبه فيقره على ما يريد وما يرتئيه ، في حين هو يضمر في نفسه غير ما اقره عليه ، وهو في الحقيقة لا يبغي من ذلك غير مهادنته ، واحلال الهدوء والسكينة محل السأم والتذمر والمشاحنة . واقل ما يحتمل ان يقال في مثل هذا السلوك ، انه صفعة للنفس وامتهان لكرامتها . واني لعلى ثقة ، بانني لو لم اعد في حينه عن هذا الطريق ، طريق الكذب والخداع لكان كل منا ، وكأنه غريب عن صاحبه ، لا يمت اليه بصلة ولكانت مهادنة لا حياة فيها .

ومن يدري ، فلعلي من فقدان وعيي واضطراب نفسي وحيرتي في امري صرت اقرع ان يكون بين احتمالي ما لم اكن قصدت اليه . ولم يكن فرعي من اننا لما نزل بعد في الجامعة ، ولا لان الظروف لم تكن بعد مواتية ، ولا لاننا لا نريد ان نصبح اطفالا ، بل لاني في الحقيقة لا اريد ان افتقد شيئا من جمالي . ومن يدري ما قد جاء القدر لي ! وها هو الخوف يترصدني ، فلعلي لا اقوى على حمله ، وقد لا يعد ان يسقط من احتمالي قبل ان ينتهي الخصام بيننا .

ولم اشعر الا وانطوت هذه الايام ، فتبددت الغيوم ، وتجلى لي خلاف ما قد تصورته ، وتغيرت طبوق فيه . اذ اخذ يرعاني ويحنو علي ، ويعتني بي ، ويهمه ان يراني . وبدا لي ان قد شغل بي وقلق من اجلي ،وتخوف من ان يصيبني سوء او ان يحتبس طبعي . فعاد لاول مرة يحمل معه باقة من زهور الياسمين، وهو الذي لم يكن قد اعتاد هذا الاسلوب في حياته من قبل . وبدأنا نستعيد روابط الحب المشتركة بيننا .

وعلاقات الود والاخلاص المتبادلة، وعادت شعلة الحب ، تنير لنا طريق الحياة السعيدة .

وحين ولدت « شقرة » سمحت لنفسي ان استمتع بجولة متعمقة انتهت بي الى حيث يسكن ابوى ، وصعب على ابتعادى عن « مغامر » وفراقي له . وكان هو الاخر لم يحتمل البعاد فجاء الى يسعى بحدوه الشوق ، رغم ضيق الوقت ، وضيق ذات اليد ، وعاود زيارته في كل مرة سمحت له فيها ظروفه . فعاد اوار الحب يلهب قلبينا ،

وانجذب كل منا للاخر ، جذب الصائد لفريسته ، من غير ان يكون لارادتنا اثر في ذلك . فقد كنا نرى احيانا صامتين لا يكلم احدنا الاخر بلسانه ، ولكننا نتحسس الحب بين قلبينا ، وقد يكتفي الانسان ان يجتمع بمن يحب ويهوى ويشعر بقربه منه .

ولم نكن نرغب ان نصبح اطفالا . ومع ذلك ، فلم تكن تلك الرغبة سهلة التحقيق . وكانت تنتابني قبل ولادة « شقرة » ثورة عارمة ، تشعرني بأنه

نفسي ، يكاد يفقدني معنوياتي ومقدساتي ، لولا ايماني بالله وتعاليمه الاخلاقية .

ولم تلبث ان فاجأنا القدر ، فلم نشعر الا وقد حالتنا الارادة ، وحالنا الحظ ، فولدت توأمين ، ولم يكد يمر غير ربيع واحد من عمر « شقرة » ولم تكن اوضاعنا المالية تسمح لنا بحياة كريمة ، فازدادت حراجتها وتعقدت سبلها بعد ولادة هذين التوأمين . اذ كان ما يكسبه « مغامر » من ورق لا يكاد يكفي اودنا ، ولم اكن استطيع العمل لاكسب ما يساعدنا على الحياة ، فتربية اولادي وادارة بيتي قد استغرقتا كل ساعات ايامي ، ولم يعد يبقى ، هو الآخر ، يشبع لنا بعد ، فقد كان في ضيقه يريد من شقائنا وتعاسة حياتنا ، وهكذا عادت الحياة تتأرم من جديد ، وطفقت تراودني الوساوس والاوهام . فبدا لي ان « مغامر » لم يعد يعيرني اهتمامه ، ولم يندفع لمساعدتي في اعمالي البيتية ، وبدا عليه الضجر والسأم ، فلم يعد يشعر بالراحة في بيته ، وكيف يجدها وها هي زوجه ، لم تنفك تشكو وتندب حظها ، وتناوه وتنادي بالويل والثبور . فسئم كل منا صاحبه ، وتوترت اعصابه ولم تعد تحتمل الحياة . وتحكمت في اعصابي ، فاندفعت أعتم كل لحظة ، اسلقي فيها ، واسلم نفسي لنوم عميق .

ولم اجد ضرورة تدعوني الى ان اكون ضحية هذا الوضع ، وسرعان ما دب في نفسي شعور بالكراهية لزوجي . ولم يخطر لي ان افكر في حل هذه الازمة ولم تبدلي امكانات اخرى تصلح ان تكون وسطا بين فكرة التضحية التي كانت تراودني احيانا وبين فكرة الانانية كانت تنزع الحب من قلبي .

وسرعان ما تفتحت لي آفاق جديدة ، فبدا لي ان خير ما يمكن ان نحتفظ به من حدة هذه الازمات ، هو تحكيم العقل وحصر مواضيع الزوجية بنا وحدنا .

انها رحمة الله التي حلت في نفسينا ، فانقذتنا من بؤسنا ، اذ حظينا بمنزل رحب ، وورق مبسوط ، وعادت الى نفسي الثقة والاطمئنان . وادركت ان « مغامر » يكد ويكدح ، ليوفر سبل الحياة الرغيدة لعائلته ، فهو يضحي براحته وبجهوده لراحتنا ، وقد مرت عليه ايام كان يعمل فيها منذ الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل ، ليقيم اودنا ، يحدوه الشعور في تحمل مسئولية عائلته .

ولعلي قد تكلمت حتى الآن كثيرا عما لاقيته في زواجي من صعوبات وآلام . والحق اني ، مع كل ذلك ، قد تمتعت في عصون الاثنتي عشرة سنة ، التي قد قضيت أيامها في حياتي الزوجية ، بساعات حلوة لا تمحى من مخيلتي . فقد تخللتها لذائذ ومنغصات ، لم يكن لها مثيل في واقع الحياة .

فكان ان شعرنا ، انا و « مغامر » ان قد استطاع كل منا ان يحسن فهم صاحبه ، ويألفه ، كلما مر الزمن . واما الآن لو قدر لي ان احيا حياة جديدة في هذا العالم لما اخترت ان اسلك غير هذا الطريق نفسه ، ولفضلت ان اتزوج « مغامر » ، ولحاولت في الوقت نفسه ان اتجنب الغلطات التي مررنا بها . واظنه ، هو الآخر ، يرى مثل ما قد ارتأيته .

ولولا ايماننا بالله ، وثقتنا بعونه ورحمته ، ما كان باستطاعتنا ان نتغلب على تلك الازمات الحادة ، التي اعترضت طريقنا ، ولما حظينا بحبنا .